الإخلاص دعامة خلود النجف

السيد محمد حسن آل الطالقاني(*)

بالرغم من كثرة ما كتب عن النجف فهي مظلومة ظلامة لا تضاهيها فيها مدينة ثقافة أو قدسية في هذا العالم على سعة أرجائه، لقد ظلمت النجف من قبل ابنائها[1] فضلاً عن الأباعد من رجال البحث والتاريخ، فلا زالت جوانب مهمة من حياتها مغفلة متروكة لم تبح لها ان تكشف للملأ ليقف على سرّ خلودها ومنشأ أهميتها وما اختص الله به رجالاتها من فضل وحكمة ومواهب وقابليات.

وليس في المسلمين وغيرهم من لا يعرف مدينة النجف الأشرف وما قامت به من خدمات للدين الإسلامي والأمة العربية ولغة الضاد، فمنذ قرون متطاولة وهي جامعة العلم الكبرى عند المسلمين، وقد أينعت فيها ثمار العلم والمعرفة يوم ربض في عرينها باب مدينة العلم أمير المؤمنين علي عليه السلام.

ومنذ ذلك الحين وضع الحجر الأساس لهذه الجامعة العظمى بجوار المعلم الأعظم واتجهت اليها الانظار وهفت إليها النفوس وأصبحت عاصمة التشيع ومهبط الامامية وغيرها من الفرق.

ولست أريد أن أتكلم عن أهمية مدينة النجف ومكانتها في العالم الإسلامي فقد اغناني عن ذلك تاريخها المجيد وانتاجها الواسع وتخرجها لأعلام الرجال وأعاظم العلماء.

وقد عرف القاصي والداني انها دماغ العراق المفكر وقائده المنصور (وبركانه الثائر) كما كان يسميها فيلسوف الفريكة أمين الريحاني، وقد عملت منذ تأسيسها على نشر الاسلام واعمام أحكامه وتعاليمه وثقافته، وتنمية عقول المسلمين وتهذيب اخلاقهم وافكارهم والمحافظة على لغة القرآن في العصور التي انعدم فيها الوعى إلى أبعد الحدود.

ولم تكن النجف الوحيدة في ذلك في العالم الإسلامي بل قد ضاهتها - إلى حد معين

(*) من أفاضل علماء النجف والمعنيين بتراثه (ت٢٠٠٣)

عن: جريدة العدل النجفية السنة ٣ ع ٦ و٧ حزيران ١٩٦٨ م

(١) لم تعدم النجف من ينال منها ويدعو للأزهر فقد كتب العلامة العبقري الشيخ علي الشرقي رحمه الله مقالاً في مجلة «لغة العرب» لا أتذكر في أي مجلداتها، قرأته، وقد نسب فيه الروح الفارسية إلى النجف في كتبها ودراستها وعزا الروح العربية للأزهر وكأنه غفل عن أبناء الجاليات واللغات المختلفة الذين يفدون علي الأزهر للتخرج من معاهده!.

بعض المعاهد والجامعات لكن الشيء الذي لم يكن من السهل على كل تلك المعاهد ان تضاهيها فيه هو الاخلاص لله وللعلم[١] الذي ظل يتوارثه الخلف عن السلف إلى وقت قريب، بل والى الآن لدى بعض الافراد والجماعات وهو مشترك بين اثنين هما قوام وجودها وهما طالب العلم وزعيم الحوزة ولنا عند كل منهما وقفة قصيرة.

(١)

إن في العالم اليوم جامعات قديمة وعظيمة تقصد من أرجاء المعمورة للارتشاف من مناهل علمائها واساتذتها، وتستقبل أروقتها الأفواج بعد الأفواج يقيم الطالب فيها سنوات معدودة ويحصل بعدها شهادة الاختصاص في الموضوع الذي عشقه وهواه ويعود إلى بلاد وقومه وبيده مفتاح مستقبله ورصد حياته، فيفتح عيادة ان كان طبيباً أو مكتباً ان كان مهندساً أو محامياً إلى غير ذلك من فنون العلم وأنواع المهن.

فالعلم إذن واسطة ارتزاق ووسيلة معاش يكد طالبه ويجتهد ويسهر لياليه ويحتمل الغربة وضروب الامتهان إلى أمد معيّن ووقت محدود يعود بعده فيسترجع ما فقد من ماله وصحة ويعوّض عمّا بذل من جهد وتحمل من غربة وفراق أحبة.

تلك هي العادة التي جرت عليها الأمم في العالم شرقاً وغرباً فللكل هدف يرمي إليه وغاية يقصدها، وأمل ينتظر تحقيقه من وراء دراسته وتعلمه أما النجف فتشذ في ذلك عن جامعات العالم قديمها وحديثها فالدراسة فيها غاية لا وسيلة والطالب يدرس ويتفقه ويتثقف لوجه العلم لا يبغي من ورائه مالاً ولا جاهاً، والمدرس يواصل الليل والنهار بالافادة والتوجيه والتعليم لا يريد جزاءً وشكورا فغاية الطالب ان يتعلم وغاية المعلم ان يفيد[٢].

ويتضح ذلك جلياً لمن دخل هذه المدينة العامرة بألوف الطلاب، وطاف على حلقات الدرس في الجوامع والمدارس، فسيجد الشيوخ من أبناء الستين والسبعين يعلمون ويتعلمون،

---

(١) تراجع مجلة (الرسالة) المصرية السنة العاشرة فقد نشرت خطاباً لبعض اساتذة الجامع الأزهر بمناسبة ذكراه الألفية عام ١٣٦١ هـ قال فيه: «ما أبعد الفرق أيها المعهد العتيق بين يومك وامسك، لقد كان طلابك مثلاً علياً في الجد والاقبال على العلم ينقطعون إليك ويؤثرونك على أوطانهم وأهليهم. تغريهم اللذة العلمية أما اليوم فقد شغلتهم عن العلم المطالب والرغائب واصبحوا لا يعملون إلاّ لاجتياز الامتحان».

(٢) لا بد لنا من الإشارة هنا إلى ان جامعة النجف وجميع المعاهد العلمية والحوزات الدينية كافة تمتاز عن غيرها بأن أساتذتها يعملون بلا رواتب ومخصصات لانهم يعتقدون بأن العلم عبادة ويريدون أن تكون تلك العبادة خالصة لوجه الله لا تشوبها شائبة كما كانت عليه الحال في عهد الصحابة والتابعين وتلامذة الأئمة الطاهرين ومن جاء بعدهم.
والمعروف ان نظام الملك لما عين الرواتب لمن يقوم بالتدريس ـ وذلك في القرن الخامس الهجري ـ نار عليه العلماء وأقاموا مأتماً للعلم خوفا ان يتحول إلى حانوت تجاري فتأمل!
يراجع (تاريخ علماء المستنصرية) للاستاذ ناجي معروف: ١٣١٣.

ويواصلون الاستزادة من المعرفة فهم يحيطون بمنابر الكبار من الاساتذة والمجتهدين ويختلفون إلى من هو أفضل وافقه منهم ولسان حالهم يردد (رب زدني علما) فما لابن هذه السن بالدراسة من هدف؟.

وهل يبغي من (وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً) من وراء الدراسة وبذل الجهد ـ الذي هو أحوج ما يكون إليه في هذه المرحلة من العمر ـ شهادة تخرج يعتاش بواسطتها؟ كلا فانهم يقرؤون العلم للعلم ويسهرون على فقه الكتاب والسنة لوجه الله فحسب دون ان يكون لهم هدف مادي ومنفعة شخصية وهل يعني ذلك غير الاخلاص؟!.

وأتذكر ان عدداً من أصدقائنا من أساتذة جامعة بغداد زارنا قبل سنوات في النجف واحب ان يتعرف إلى بعض المجتهدين ويشاهد بعض الطلاب وهم الدكتور علي الراوي والدكتور علي عبد الحسين والدكتور حقي التميمي والاستاذ ازهر الكاظمي. وقد زرنا بعض زعماء الدين وكبار المشايخ وشاهد الاخوان بعض حلقات الدرس وعشرات من طلاب العلم وهم مختلفون في الاعمار والاشكال واللغات والجنسيات فكان اعجابهم بالروح العلمية وبكل ما رأوا كبيراً للغاية.

وقد قال لي الدكتور الراوي ونحن نفارق مجلس الامام المصلح الشيخ عبد الكريم الزنجاني: انه يود ان لا يفارقه، ويتمنى لو انه كان يعيش في النجف ليختلف إلى أولئك الرجال ويستمع إلى مثل ما استمع إليه من أحاديث دوماً.

وقال لي الدكتور التميمي ونحن في مكتبة الامام الحجة المجاهد الشيخ اغا بزرك الطهراني: انه سيحاضر طلابه في كلية الزراعة عن هذا الشيخ العظيم الذي تجاوز عمره التسعين وهو لا وهو لا يزال يواصل اعماله العلمية بروح دونها روح الشباب وطموحه وانهم سيحثهم على زيارة النجف ومشاهدة هؤلاء العلماء ليأخذوا درساً من سيرتهم المثلى ومعنوياتهم العالية وجهادهم الصامت.

وليس هذا الاخلاص كثيراً على علماء النجف وطلابها فقد خلق من هذه التربة الشريفة رجال لم يعرفوا غير العلم ولم يطلبوه لغير وجه الله ووطأ أرض هذه المدينة المقدسة ابدال استمدوا روح التضحية من صاحب القبر الذي لاذوا بجواره وعكفوا بحماه فقد خلقوا للعلم وخدمة الحق والفضيلة ولم يشغلهم الوصول إلى مرتبة عن السعي إلى أرفع منها ولم تقف بهم الهمم والطموح عند حد، بل نفذوا وصية النبي ﷺ فطلبوه من المهد إلى اللحد وحتى فنوا في سبيله وقد عرف ذلك عنهم من ذاق حلاة العلم ورأى طلابه في هذه المدينة المقدسة.

قال الدكتور زكي مبارك رحمات الله على روحه السامية: «علمتني الايام انه لا بد لنا من رجال يعيشون للعلم وحده فلا يكون لهم مستقبل ولا معاش ولا يكون لهم مصير غير الفناء في خدمة الحق وبفضل هؤلاء الزاهدين كان للنجف تاريخ وللأزهر تاريخ»[١].

تلك هي بالضبط حقيقة حال علماء النجف وطلابها بالأمس فناء في خدمة الحق لا غير واذا لم تكن كذلك فما الذي حدا بالامام المجاهد الشيخ محمد جواد البلاغي مثلاً ان يخفي إسمه ولا يحلى به وجه مؤلفاته القيمة، لقد بلغ الاخلاص ونكران الذات بهذا الحبر العظيم ان طبع كتابه (الهدى إلى دين المصطفى) في صيدا عام ١٣٣١ هـ بدون اسم وكان الاسم الذي أذاعه ودل عليه من يحب مناقشته (مؤلف كتاب الهدى) وقد اضطر ذلك الباحث المعروف يوسف اليان سركيس إلى ان يذكره في باب المؤلفات المجهولة المؤلفين[٢] لأنه لم يعرف مؤلفه!! هذا والمؤلف حي يرزق!.

والكتاب من أعظم الكتب الاسلامية في هذا القرن ولا نبالغ إذا قلنا بأن عشرة من العلماء لا يتمكن من تأليف مثله ﴿وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[٣] ولهذا العالم الكبير المخلص أشباه ونظائر ابرزهم في نظرنا الامام الحجة المجاهد الشيخ آغا بزرك الطهراني حفظه الله فهو يحمل عقلية لا وجود لها بين المعاصرين من العلماء والمؤلفين في الدنيا كلها فهو حاضر لأن يقدم لمن يشاء من مؤلفاته ما يعجبه لينشره بإسمه دون التعرض لذكر صاحبه الحقيقي، فهو يرى «ان الغرض نشر هذا الكتب وإحياء ذكر المترجمين فيها باسم من نشرت وكائناً من كان المؤلف»[٤].

هذا ما رأينا من مشايخنا رأي العين وقد سمعنا وقرأنا عن السلف الصالح ما دلل كذلك على ان الاخلاص كان أساس بناء هذا العهد منذ يومه الأول وهو ارث القوم يفخرون به ويطبعون عليه جيلاً بعد جيل وقبيلا عن قبيل لتنوير القارئ وتوثيق ايمانه بصحة ما نقول نثبت له قصة واحدة مما نرويه عن المشايخ والملف بهذا الصدد.

قال الامام المقدس الحجة الثبت الشيخ حسين النوري نضر الله وجهه «وعثرت على نسخة قديمة من كتاب (النهاية) وفي ظهره بخط الكتاب وفي موضع آخر بخط بعض العلماء ما لفظه: قال الشيخ الفقيه نجيب الدين أبو طالب الاسترابادي رحمه الله وجدت على كتاب النهاية بخزانة مدرسة الري قال حدثنا جماعة من أصحابنا الثقات ان المشايخ

---

(١) وحي بغداد: ٢٤٣.

(٢) معجم المطبوعات العربية والمعربة ٢٠٢٤.

(٣) الاسراء: ٨٨.

(٤) ملحق مجلة «المعارف» العدد٣ السنة ٣ ص ٤. من حديث لصاحبها اذاعه من راديو بغداد بتاريخ ١٩٦٠/٧/٥.

الفقهاء الحسين بن المظفر الحمداني القزويني وعبد الجبار بن علي المقرئ الرازي، والحسن بن الحسين ابن بابويه المدعو بحسكا المتوطن بالري رحمهم الله كانوا يتحادثون ببغداد ويتذاكرون كتاب النهاية وترتيب أبوابه وفصوله فكان كل واحد منهم يعارض الشيخ الفقيه أبا جعفر محمد بن الحسن الطوسي رحمه الله عليه في مسائل ويذكر انه لا يخلو من خلل ثم اتفق انهم خرجوا لزيارة المشهد المقدس بالغري على صاحبه السلام وكان ذلك على عهد الشيخ الفقيه أبي جعفر الطوسي رحمه الله وقدس روحه وكان يتخالج في صدورهم من ذلك ما يتخالج قبل ذلك فاجمع رأيهم على ان يصوموا ثلاثاً ويغتسلوا ليلة الجمعة ويصلوا ويدعوا بحضرة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام على جوابه فلعله يتضح لهم ما اختلفوا فيه فسنح لهم أمير المؤمنين عليه السلام في النوم وقال:

لم يصنف مصنف في فقه آل محمد كتاباً اولى ان يعتمد عليه ويتخذ قدوة ويرجع إليه اولى من كتاب النهاية الذي تنازعتم فيه وأنما كان ذلك لأن مصنفه اعتمد فيه على خلوص النية لله والتقرب والزلفى لديه فلا ترتابوا في صحة ما ضمنه مصنفه واعملوا برأيه واقيموا مسائله فقد تعنى في تهذيبه وترتيبه والتحري بالمسائل الصحيحة بجميع اطرافها. فلما قاموا من مضاجعهم اقبل كل واحد منهم على صاحبه فقال رأيت الليلة رؤياً تدل على صحة النهاية والاعتماد على مصنفها. فأجمعوا على ان يكتب كل واحد منهم رؤياه على بياض قبل التلفظ فتعارضت ـ كذا ـ الرؤيا لفظاً ومعنى، وقاموا متفرقين مغتبطين بذلك فدخلوا على شيخهم أبي جعفر الطوسي قدس الله روحه فحين وقعت عينه عليهم قال لهم: لم تسكنوا إلى ما كنت اوقفتكم عليه في كتاب النهاية حتى سمعتم من لفظ مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فتعجبوا من قوله وسألوه عما استقبلهم به من ذلك فقال: سنح لي أمير المؤمنين عليه السلام كما سنح لكم فأورد علي ما قاله لكم. وحكي رؤياه على وجهها وبهذا الكتاب يفتي الشيعة فقهاء آل محمد عليهم السلام والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله الطاهرين»[1].

تلك واحدة من قصص وحوادث نقلت بهذا الصدد وهناك عشرات الأمثلة والشواهد من هذا القبيل عن شيوخ الطائفة ودعائم العلم في فترات متعاقبة وازمنة مختلفة ولم يكن من خلفهم عبر القرون والاجيال أقل منهم اخلاصاً لله والحق وحرصا على خدمة العلم والدين فاين نحن منهم اليوم؟ واين اهدافنا من تلك الاهداف؟! أو نوايانا من تلك النوايا؟!

يقول العلامة الحر الجريء، الشيخ محمد جواد مغنية: (أما من يطلب العلم للعيش وبلوغ المنصب فيكتفي منه بالقدر الذي يوصل إلى الغاية وقد لا يبلغ أحدنا من العلم شيئاً فيتظاهر به

(١) مستدرك وسائل الشيعة ٣ـ ٥٠٦. وحياة الشيخ الطوسي: ك ـ ل ولا بأس بمراجعة تعليق الامام الطهراني على القصة.

ويموه على الناس ليبلغ ما يريد. واذا اطمأن احدنا إلى لقمة العيش ترك العلم والمطالعة والتذاكر حتى كأنه عدو لدود».

وقد صدق فيما قال ولم يتعد الواقع قيد أنملة لقد كنا نطلب العلم للعلم ابتغاء مرضاة الله تعالى فيرفع الله اقدارنا بين الناس ويلهمهم اجلالنا ويلقى محبتنا في القلوب ولما تبدلت غاياتنا ومقاصدنا وصرنا نطلبه للدنيا واتخذناه وسيلة للرزق وذريعة للجاه هنا على الناس وزهد فينا المخلوق واعرض عنا من كان يقبل علينا بالامس ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ ورحم الله القاضي الجرجاني حيث قال:

ولو ان أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما